بلاغة التأثير النفسي في الفنقلة للزمخشري

الباحثة: أسماء شهاب محيي الغزي **أ.د. عـادل راضـي الزركاني**

الدراسات العليا/ جامعة سومر **رئاسة جامعة سومر**

الملخص :

يظهر مجال القول عند الزمخشري في تفسيره الكشاف من خلال استخدام أسلوب (الفنقلة)، الذي استطاع بصددها أن يفتح أبواباً في مختلفِ المجالات ويناقش مسائل هذا العلم تطبيقًا على الآيات القرآنية. إذ استوعب الزمخشري خطابه التفسيري، باستخدام وسيلة تعبيرية بارزة، أولت اهتمامه في مجال البحث والتفسير، ولم يتغاضَ في ذلك عن الجوانب الاخرى ذات الأهمية في الأداء الفني كالجانب النفسي، بافتراض أسئلة يفهمها القارئ المتلقي بأسلوب مشوّق لتلقي الأجوبة، فتؤثر الرسالة على نفسه بلهفة، وبالتالي يعمل ذلك الأثر على ترسيخ المعلومات في ذهنه، وكذلك يسهم في مد أفق التحليل فيسهب لقضايا علمية، تجعله يتفنن في هذا المجال لإثراء معاني النصوص القرآنية، والاجتماعي محاولة منه في إظهار الحقائق كلما رُجع إليه.

الكلمات المفتاحية: (بلاغة التأثير النفسي، الفنقلة للزمخشري).

he eloquence of the psychological impact of Al-Zamakhshari's transliteration

Researcher: Asma Shihab Mohie Al-Ghazi,
Postgraduate Studies/Sumer University
Prof. Dr. Adel Radhi Al-Zarkani
Presidency of Sumer University

Abstracts:

The field of saying appears when Al-Zamakhshari in his interpretation of Al-Kashaf through the use of the (alfanuqla) method, in connection with which he was able to open doors in various fields and discuss issues of this science in application of the Quranic verses. Al-Zamakhshari absorbed his exegetical discourse, using a prominent expressive method, which gave his attention to the field of research and interpretation, and did not overlook other aspects

of importance in the artistic performance, such as the psychological aspect, assuming questions that the recipient reader understands in an interesting way to receive answers, so the message affects himself eagerly, and thus This effect works to consolidate the information in his mind, as well as contributes to extending the horizon of analysis, so he dwells on scientific issues, which make him master in this field to enrich the meanings of the Qur'anic texts, and the social one, an attempt by him to show the facts whenever he returns to him.

Keywords: (Rhetoric of psychological influence, Al-Zamakhshari's transference).

المقدمة:

من السائد أن الناس يتأثرون في عملية التلقي من الخطب والخطباء، بحسب بلاغة الخطيب وحالاتهم النفسية. فاللغة الإقناعية بمفردها لا تفي بالغرض في الخطاب التفسيري وهذا أمر وارد يدلي به الناس في كل العصور، ولا ينقطع هذا التأثير أو ينفصل المتلقي بمشاعره تجاه المتكلم وهو يتلقى الخطاب. إذ يقوم الخطاب بدوره في معالجة النفس الإنسانية، ويؤثر في تلك النفس لتهيئتها للإيمان، ويكون المعيار النفسي ((من أهم المعايير المؤثرة في عملية التلقي، ومن ثم كان من ضروريات فن الخطابة عند العرب وغيرهم، لأن وظيفة النص الخطابي في أن يأخذ بنفوس المخاطبين إلى القضية التي يطرحها الخطيب، وقيادة النفوس إلى تلك الغاية تستدعي المعرفة بأحوالها وأنواعها))[١].

فالإخلاص في تصوير ما في النفس من فكرة واضحة أو عاطفة صادقة، يجعل الأسلوب مثاليًّا متى توافرت للأديب هذه الوسائل البيانية، وبذلك يصبح الأسلوب مرآة العقل، والخلق، والمزاج، وطرق التفكير والتخيل، سواء أكانت تلك قوية أم ضعيفة، مستقيمة أم مضطربة، جميلة أم قبيحة؛ لأن مصدر ذلك كله إنما هو نفس الكاتب، فمنها تنشأ هذه الصفات، وإليها ترد.[٢]

حيث يمكن لبلاغة الخطيب وأسلوبه أن يتحكمان بهذه المعايير، ودرجة تأثرهما من خلال المعرفة بأحوالهم النفسية حيث ((لا بد أن يعرف أحوالهم النفسية، حتى يجعل خطبته مؤثرة فيهم، وكأنه يوجب على الخطيب المعرفة الدقيقة بعلم النفس، فلا بد أن يعرف طبائع من يستمعون إليه، حتى يطابق بينهم وبين كلامه، كما يطابق بين كلامه وبين الموضوع الذي يتحدث فيه))[٣]

فالمعنى لا يكون له تأثير في النفس إلا بأن يعرض في معرض حسن، وعندها سيصنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة فهذا الصنيع دلالة على الأثر الجمالي الذي سيحدثه البيان عند اتصافه بتلك الخصائص الجمالية.

وفي البلاغة العربية ((ظل يتجاذبان جانبان أساسيان هما جانب التواصل والإبلاغ وجانب الفن والجمال ، الدلالة والإبلاغ بما يعنيانه من دقة ومباشرة ووضوح وإقناع، والفن والجمال بما يفرضانه من غموض وتخيل وإمتاع))[٤].

ومعروف أن في النفس الإنسانية قوتين : قوة تفكير التي يعمل القرآن الكريم على تهذيبها، وقوة وجدان، حاجة ، كل واحدة منهما غير حاجة أختها . فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفي هاتين الحاجتين ، ويطير إلى النفس بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً.[٥]

وهنا استطاع الزمخشري أن يوظف أسلوب الفنقلة كنوع من البلاغة وفن من فنون التأثير وشكل من أشكال الخطاب الادبي الحجاجي، الذي لم يخرجه عن غايته الأصلية لنكتة بلاغية توافق السياق والمقام. وهذا رأي الزمخشري بأسلوب التفنن في الكلام عند العرب ((وذلك على عادة افتنانهم في

الكلام وتصرفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد))[٦]

كانت للزمخشري اشارات حسنة في كشف النسق النفسي للأسلوب القرآن الكريم ولم تجد من المفسرين والدارسين لبلاغة القرآن من اهتم بهذا الجانب الذي كان أساسا في بناء أسلوب القرآن الله، وقد كثرت اشارات الزمخشري الى هذه الزاوية المهمة وربط كثيرا من الفنون والخصائص البلاغية بأحوال النفس وشئونها وفسرها تفسيرا نفسيا يكشف عن سر قوتها وتأثيرها. النهي والتوكيد ومواقع الشرط والتعريف بالإضافة، وتفسير قيود الجملة وما ذكرناه في ترتيب الجمل والآيات والتكرار وغير ذلك كثير وكثير، ولا مبالغة إن قيل إنّ اعتماد الزمخشري الأكبر في بحث البلاغة القرآنية كان يرتكز على خبرة بأحوال النفس وشؤنها[٧]

إذ يمكن تقسيم الأسلوب التأثيري في الفنقلة إلى قسمين:

أولاً: أسلوب التأثير الإقناعي

الإقناع في اللغة يشير إلى ((الإقبال على الشيء، ويدل أيضاً على الإقبال بالوجه على الشيء، ويقولون: قنع قناعة، إذا رضي. وسميت قناعة لأنه يقبل على الشيء الذي له راضياً))[٨]. فالإقناع فكرة أساسية لها أصول قديمة، فقد كانت هذه الفكرة في عصور سابقة هي مسلك الأنبياء والمرسلين في إيصال رسالتهم السماوية، حيث لم تكن هناك وسيلة اتصال للإنسان سوى صوته، الذي تمكن من استخدامه؛ لإقناع الناس بأمور المعتقدات والأعمال، والأفعال حتى أصبح الإقناع وسيلتهم التي تَظهر فيه مهارتهم. ومع تطور المجتمعات، وتوسعها أخذ فن الإقناع يزهر شفهياً بمسلك الكلام الفصيح[٩]. حتى أصبح هذا الفن جزاً لا يتجزأ عن الخطاب، ((فعناصر بناء الخطابة عند أرسطو ثلاثة: وسائل الإقناع أو البراهين والأسلوب أو البناء اللغوي، وترتيب أجزاء القول))[١٠] وفي بدايات ظهور البلاغة، أصبح تعبير "علم البيان" أو "الفصاحة" يستخدم للإشارة إلى فن استخدام اللغة للتأثير

على مفاهيم الآخرين وسلوكهم، ((وعلى ضوء مراعاة مقتضى الحال صنفت البلاغة العربية، فيما بعد المخاطبين الذين يُلقى إليهم الخبر إلى ثلاثة أصناف: مُخاطب خالي الذهن ومخاطب شاك متردد، ومخاطب جاحد منكر))[١١]. وجميع هذه الأصناف تتعلق بمدى قدرة الخطيب على إقناع المخاطب، ومع هذا يبقى الإقناع: ((العملية التي يؤثر بها الخطاب في مواقف الناس وسلوكهم بدون إكراه أو قسر))[١٢]وبلاغة الإقناع ترتبط ارتباطاً مباشراً بعلم البيان في البلاغة العربية القديمة فكلاهما يهتم بإيضاح، وإفصاح، وبيان حال المفهوم، بأسلوب تأثيري يتغلغل في عقل المتلقي، فالحجة: ((يصوغها في قالب لغوي مناسب؛ ليخاطب بها عقل المرسل، وهذا تأكيد على حضور وظيفة التفاعل في اللغة))[١٣] ويدرك ذلك الجاحظ (ت٢٥٥)، حيث يجعل الخطاب الإقناعي الشفوي غايته القصوى في كتابه البيان والتبيين وهو ((إقناع تقدم فيه الغاية (الإقناع) على الوسيلة (اللغة) وتحدد الأولى طبيعة الثانية وشكلها حسب المقامات والأحوال))[١٤].

وكذا يأتي بعده الزمخشري؛ وهو يحاول إقناع المتلقي، بنفس أسلوب الصياغة القرآنية (البلاغية إقناعية، حوارية) وهي مفاهيم واضحة في لغة القرآن الكريم، فيفسر النصوص القرآنية بتوظيف تلك الأساليب في الفنقلة، وأساليبه هذه يبدو عليها الطابع التفسيري الإقناعي واضحاً، وفضلاً عن ذلك فإن حاجة المفسر للبلاغة أمر لا يمكن الاستغناء عنه، وذلك لأن هدفه الأساسي هو التواصل مع الآخرين وإقناعهم. حيث أنّ ((العلامة المستعملة في الحجاج هي اللغة الطبيعية في الأساس، فقد عد "بوبر" من وظائف اللغة الأربعة الى جانب الوظيفة الوصفية والوظيفة الإشارية، والوظيفة التعبيرية، إذ يستعمل المرسل اللغة بغرض الحجاج ليهيئ الحجج والتفسيرات ويقومها))[١٥]. وبهذا المفهوم فعلى المحاجج أن يمتلك وسيلة الإقناع لكي يتمكن من تحقيق الغلبة على الخصم، ولما كان الخصم غائباً كما هو الحال في فنقلات الزمخشري فما هو الهدف من هذه المحاججات؟ فيكون الجواب إن الهدف الأسمى من هذه المحاججات الذاتية أو الداخلية هو إثارة المتلقي للتفاعل مع أسلوبية الحجاج من جانب آخر يتعلق بطبيعة الفكر الاعتزالي وحياة الزمخشري نفسه إذ روي أن الزمخشري كان ميالاً

للعزلة والانطواء حيث الابتعاد عن الحياة الصاخبة واختيار العزلة عن المجتمع المكي انذاك وهذا يدفعنا الى الاعتقاد بان الشخص اذا اعتمد على الانفراد في عيشته والانزواء في حياته فان ذاته تتحول مرآة له يحاكيها ويجادلها ويتخذها رفيقا وخصماً. وهذا ينطبق على الزمخشري حيث اتخذ نفسه خصماً محاججاً ولا وجود للخصم أو المحاجج في قوله: (فان قلتَ : قلتُ.[١٦]

حتى أصبحت الفنقلة لغة حجاجية، إقناعية، تتفنن فيها الأساليب، وتتنوع بتنوع البلاغة القرآنية.

ففي قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً﴾[١٧] يبين الزمخشري حجته ويفسر العدد والمعدود؛ بوضع جواباً منطقياً للسعي في افهام المتلقي وإقناعه فيقول: ((فإن قلت: مميز ما عدا العشرة مفرد، فما وجه مجيئه مجموعا؟ وهلا قيل: اثنى عشر سبطا؟ قلت: لو قيل ذلك لم يكن تحقيقا لأنّ المراد: وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباطا موضع قبيلة. ونظيره وأُمَماً بدل من اثنتي عشرة، بمعنى: وقطعناهم أمما لأنّ كل أسباط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد، وكل واحدة كانت تؤمّ خلاف ما تؤمّه الأخرى، لا تكاد تأتلف، وقرئ اثنتي عشرة بكسر الشين))[١٨] اذ أنّه يسوغ أسلوبه الخطابي ببراهين وأدلة ترغم المتلقي على استيعابها وتقبل القول، حتى تكتمل الصورة لديه وإيصال مقصد النصوص القرآنية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ ۞قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۞ سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ ۞ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٩] في سياق النص القرآني الحكيم يأتي الزمخشري بأسلوبه الإقناعي في اثبات معجزة النبي أبراهيم عليه السلام بالأدلة والبراهين الواضحة من عدةِ محاور:

١. حجة تصديق الرؤيا: فقد وقف مستفهماً إزاء تأكيد قوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا﴾

((فإن قلت: قد أوحى إلى إبراهيم صلوات الله عليه في المنام بأن يذبح ولده ولم يذبح، وقيل له: قد صدقت الرؤيا، وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح، ولم يصح، قلت: قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح: من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه، ولكن الله سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تمضى فيه، وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم عليه السلام، ألا ترى أنه لا يسمى عاصيا ولا مفرطا، بل يسمى مطيعا ومجتهدا، كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم، وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل، ولا قبل أوان الفعل في شيء، كما يسبق إلى بعض الأوهام، حتى يشتغل بالكلام فيه))[٢٠].

٢. حجة اسناد الفدية: وفيها تظهر هيمنة الجانب الحجاجي حين يُنبئ عن فكرته، لا سيما في الدلالات الثانوية التي يثيرها النص القرآني

((فإن قلت: الله تعالى هو المفتدى منه: لأنه الآمر بالذبح، فكيف يكون فادياً حتى قال وَفَدَيْناهُ؟ قلت: الفادي هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والله عز وجل وهب له الكبش ليفدي به وإنما قال وَفَدَيْناهُ إسنادا للفداء إلى السبب الذي هو الممكن من الفداء بهبته))[٢١].

٣. حكم الذبح: يوضح فيها امتياز النص القرآني بالرصانة الدلالية والتألق السياقي مخاطباً:

((فإن قلت: فإذا كان ما أتى به إبراهيم من البطح وإمرار الشفرة في حكم الذبح. فما معنى الفداء، والفداء إنما هو التخليص من الذبح ببدل؟ قلت: قد علم بمنع الله أن حقيقة الذبح لم تحصل من فرى الأوداج وانهار الدم، فوهب الله له الكبش ليقيم ذبحه مقام تلك الحقيقة حتى لا تحصل تلك الحقيقة في نفس إسماعيل، ولكن في نفس الكبش بدلاً منه))[٢٢].

٤. الفائدة من الأمر : التي تدفع بالمتلقي إلى التأمل والتدبير

((فإن قلت: فأي فائدة في تحصل تلك الحقيقة، وقد استغنى عنها بقيام ما وجد من إبراهيم مقام الذبح من غير نقصان؟ قلت: الفائدة في ذلك أن يوجد ما منع منه في بدله حتى يكمل منه الوفاء بالمنذور وإيجاد المأمور به من كل وجه))[٢٣].

٥. حجته في ترتيب الألفاظ: وتتجلى براعته حينما يتسائل عن سبب الحذف في سياق واظهاره في سياق آخر.

((فإن قلت: لم قيل هاهنا ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وفي غيرها من القصص: إنا كذلك؟ قلت: قد سبقه في هذه القصة: إنا كذلك، فكأنما استخف بطرحه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية))[٢٤]

تسير خطابات الزمخشري على صيغة الفنقلة في تفسيره للنصوص القرآنية، وترتيب الحجج الإقناعية، ويتفنن داخل هذه النصوص بأسلوبه الخاص الممتع؛ ويُلاحظ في نصوصه أنه ((يضع القارئ في موقف تفكير وتدبير في ماهية المفردات القرآنية وذلك بتساؤلاته الحوارية تارة والحقيقية تارة أخرى بطريقة يتقصى فيها صفتي الدقة والجمال مستخدماً حجاجاً دلالياً ليخدم فكرته القائمة على إثارة ذهنية المتلقي من خلال تتابع الاستفهامات بطريقة "الفنقلة"))[٢٥] كأنه يعمل على حمل المنصت للتسليم للأطروحات التي يتبعها برد تفسيري يوافق النص القرآني، وكأن المفسر يوهم المتلقي بصورة تخيلية لجماعة من المتلقين المناقشين، تستشعر معهم بما يطرح عليه من حوارات التساؤل، يقابلها الزمخشري بالإذعان والقبول، وهذا أسلوب الخطاب المباشر الذي يمكن ملاحظته في النصوص التفسيرية للفنقلة بتركيب صياغي يتألف من:

- أداة الشرط "فإن " تبتدئ بها جملة الخطاب
- يتبعها "قلتَ" بإضمار المخاطب: مجهزاً بتساؤلات.
- يقابلها "قلتُ" بإضمار المتكلم: مدعماً بالدلالة والبراهين.

وقد ينوع باستعمال أسلوباً آخر من الإقناعِ يَظهر عليه طابع الاهتمام ببنية الكلمة في دلالات التعبير القرآني وانتقاء الكلمة مكان الأخرى :

كقوله: ((فإن قلت: لم قال: ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ؟ قلت: ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن المتقي، وليكون بعثاً للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك"

وقوله: "فإن قلت: لم قال لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ ولم يقل ضلال قلت: الضلالة أخصّ من الضلال"

وقوله: "فإن قلت: لم قال قُرَّةَ أَعْيُنٍ فنكر وقلل؟ قلت: أما التنكير فلأجل تنكير القرّة.."))[٢٦]

حيث يوظف الزمخشري أدوات الشرط، وصيغ القول، وضمائر المخاطبة والمتكلم، في تفسيره، وحواره؛ مما يزيد في جمالية الخطاب التفسيري واتساقه وتماسكه.

يعدّ الشرط من بين تلك الأساليب البلاغية التي تُسهم في صياغة الخطاب الديني والتأويلي؛ لذلك تعطيه اتساقاً وانسجاماً من منظور أول، وتعمل على انتاج خطاب اقناعي مؤثر من منظور ثاني، إذ يعدّ أحد الآليات الإقناعية الذي يعمل على إرشاد فكر المتلقي الى مقصد محدد بأدواته ولوازمه؛ لذا اتسم خطاب الزمخشري الديني بالشرط وأتقن أدواته الشرطية ليطرح الفنقلة في القضية الدينية والنص التفسيري ومناسبة العقل التأويلي وبهذا يكون ما يسمى بـ "الشرط الحجاجي " وهو ((أسلوب تداولي يعمل على تحديد الإمكانات الممكنة داخل الخطاب من خلال الارتباط الشرطي ،تحدد قيمته الحجاجية في حين الجزء الثاني منه يعمل على توجيه ذهن المخاطَب نحو وجهة محددة))[٢٧] نحو قوله تعالى : ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ﴾ جملة من شرط وجزاء، واقعة جواباً للشرط الأول الذي هو إذا بلغوا النكاح، فكأنه قيل وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم، فاستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم.[٢٨]

ثانياً: أسلوب التأثير بالصورة

يعد الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) أول من لفت الانتباه إلى الصورة في العمل الأدبي بقوله: ((فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير))[٢٩]

أن عبارة الجاحظ حول التصوير، تشمل اللفظ والمعنى معاً، أو الشكل والمضمون، وهذا المفهوم، يعد امتداداً لمدلولها في اللغة والقرآن، وقد حاول تأويل النصوص اللغوية والقرآنية، وتحميلها من الأفكار ما لا تحتمله، حتى يرجع مفهوم الصورة إلى أصول عربية.[٣٠]

وقد حاول الجرجاني(ت٤٧١هـ) أن يصحح المفاهيم النقدية الخاطئة من قبله، والتي قامت على الفصل بين اللفظ والمعنى، فنظرت على ضوء هذه الثنائية بين اللفظ والمعنى ، إلى حصر الصورة في الشكل دون المضمون. فقام الجرجاني بربط الصورة بالصياغة أو النظم، والصياغة عقدة متحدة بالمعنى ولا تنفصل عنه، فأي تغيير في الصياغة يتبعه تغيير في الصورة، لأن الصورة تفهم من خلال النظم.[٣١]

يقول الجرجاني: ((ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير، والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار، فكما أن محالاً إذا أردت النظر في صوغ الخاتم، وفي جودة العمل ورداءته أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذي وقع فيه ذلك العمل وتلك الصنعة، كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه))[٣٢]

وقد حاول الزمخشري أن يسير على طريقة الجرجاني في التصوير، فاستخدم مصطلحات عدة؛ مثل التصوير والتمثيل والتخييل ، وكلها عنده تبرز المعاني المعقولة في صور حسية. وقد فسر المعاني القرآنية والحقائق الدينية، على ضوء التصوير، فوضح أن التشبيهات ((إنما هي الطرق إلى المعاني

المحتجبة في الأشياء، حتى تبرزها، وتكشف عنها ، وتصورها للأفهام))[٣٣] فدور التمثيل هو الكشف عن المعاني الغامضة، والتصوير بمنزلة التشكيل لها يقول : لأن التمثيل مما يكشف المعاني، ويوضحها؛ لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها. وهذه العبارة توهم أن التمثيل غير التصوير عنده.[٣٤]

فالزمخشري يستخدم المصطلحات المتعددة للصورة، لكي يحيط بوظائف الصورة في التشخيص والتجسيد والتخييل، كذلك يبين قيمة الصورة في نقل المعاني الذهنية في صور حسية.[٣٥]

ومن أهم ما بيرز في خصائص الصورة الأدبية القرآنية، أنها تمتاز بشيئين متحدين تمام الاتحاد، ولا يكاد واحد منهما يفترق عن الآخر في أي حال من الأحوال، وكل منهما يضفي على الآخر من جماله وجلاله، بما يؤكد أن الصورة الأدبية في القرآن لها دوما ذلك الطابع القوي المزدوج ، الذي لا يمكن أبداً أن يتوافر لسواها هذا الطابع المزدوج للصورة القرآنية هو الإقناع العقلي في الوقتِ الذي يتحقق فيه الإمتاع الوجداني.[٣٦]

في قوله تعالى: ﴿وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[٣٧]

يقول –الزمخشري معلقاً على هذا التصوير: ((ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل فقال وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة))[٣٨]

ويتضمن تفسيره رواية ينقلها عن إفهام الصورة والحكم البياني فيها: ((وحكم ما يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله صلوات الله عليه، فقال: يا أبا القاسم، إن الله يمسك السماوات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزهنّ

فيقول أنا الملك، فضحك رسول الله صلوات الله عليه، تعجباً مما قال ثم قرأ تصديقاً له وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ... الآية وإنما ضحك أفصح العرب، وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصوّر إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع أوّل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة))[٣٩]

ويقول في تصوير قوله تعالى: ((فإن قلت: فما معنى قوله ﴿فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ﴾؟ قلت: لما جعل الجرف الهائر مجازا عن الباطل قيل: فانهار به في نار جهنم، على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنم، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف، وليصور أنّ المبطل كأنه أسس بنيانا على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها. والشفا: الحرف والشفير. وجرف الوادي: جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيا. والهار: الهائر وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط. ووزنه فعل، قصر عن فاعل، كخلف من خالف. ونظيره: شاك وصات، في شائك وصائت. وألفه ليست بألف فاعل، إنما هي عينه. وأصله هور وشوك وصوت. ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدلّ على حقيقة الباطل وكنه أمره))[٤٠]

وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر، والاستدلال بالمشاهد المحسوس، حتى يتصوره السامع ، كأنه ينظر إليه بعينيه ، فيحكم اعتقاده ، والتيقن به: ((وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هواناً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه، إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل، ولا ترى بابا في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب، ولا أنفع وأعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء، فإنّ أكثره وعليته تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديما، وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علما لو قدروه حق قدره، لما خفى عليهم أنّ العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه))[٤١]

حيث ((إن الصورة الفنية في القرآن تخاطب الكينونة الإنسانية مجتمعة بما فيها من عقل وحس ووجدان، وتعزف على أوتار النفس المتقابلة لتقيم التوازن بينها حتى ترتسم صورة الإنسان النموذج ، بأبعاده الفكرية))[٤٢]

وقوله تعالى: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ﴾[٤٣]

يقول: ((فإن قلت: أي فائدة في قوله نَأْتِي الْأَرْضَ؟ قلت فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدى المسلمين، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها، ناقصة من أطرافها))[٤٤].

ففي نقله لرواية وردت في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[٤٥] يقول الزمخشري: ((فإن قلت: أهذا من باب الاستعارة أم من باب التشبيه؟ قلت: قوله: (مِنَ الْفَجْرِ) أخرجه من باب الاستعارة، كما أن قولك: رأيت أسداً مجاز، فإذا زدت "من فلان" رجع تشبيها. فإن قلت: فلم زيد (مِنَ الْفَجْرِ) حتى كان تشبيها؟ وهلا اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وأدخل في الفصاحة؟ قلت: لأن من شرط المستعار أن يدل عليه الحال أو الكلام، ولو لم يذكر (مِنَ الْفَجْرِ) لم يعلم أن الخيطين مستعاران، فزيد (مِنَ الْفَجْرِ) فكان تشبيهاً بليغاً وخرج من أن يكون استعارة، فإن قلت: فكيف التبس على عدىّ بن حاتم مع هذا البيان حتى قال: عمدت إلى عقالين أبيض وأسود، فجعلتهما تحت وسادتي فكنت أقوم من الليل فأنظر إليهما فلا يتبين لي الأبيض من الأسود، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله صلوات الله عليه، فأخبرته، فضحك وقال: "إن كان وسادك لعريضا" ، وروى: "إنك لعريض القفا" إنما ذاك بياض النهار وسواد الليل؟ قلت: غفل عن البيان، ولذلك عرّض رسول الله صلى الله عليه وسلم قفاه، لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلة فطنته))[٤٦]

يتأنق الزمخشري في تصوير آيات القرآن الكريم بالصورة الفنية بنظرة سياقية تتجاوز الخصائص الفنية للمفردة القرآنية، والتركيب إلى علاقتها في النسق القرآني.

ولاشك في أنّ ((بلاغة الخطاب الإقناعي تقابل بلاغة الخطاب التخيلي وتتداخل معها))[٤٧] فالزمخشري يسير في تفسيره الكشاف، على ضوء مفهومه التمثيل والتصوير، ويرجع بلاغة القرآن إلى أسلوبه التصويري في نقل المعاني المحققة والمتخيلة.

تدل عناية الزمخشري وتنوع أسلوبه في شرح علوم البلاغة، وتعزيز تفاسيره بالشواهد والروايات؛ أن هذه العناية نابعة لا من اتقان الفصاحة، أو ترتيب الجمل فقط؛ إنما لميزة في بيان المعنى المقصود من الألفاظ، وتحديد دلالته السليمة، الذي يعطي للبلاغة أهميتها، وتباغت الناس في التفريق بين أساليبها المتنوعة يحدث فرقاً كبيراً؛ فالنصوص القرآنية أثْرت علوم اللغة العربية، وآدابها، بالكثير من المعاني والمناهج والأنماط الخطابية، وغالباً ما يكون غاية الحوار فيها تهذيبي، أو حجاجي، ولهذا يحرص الزمخشري على بيان كل نوع، ويميزه عن الآخر في سياق تفسير النصوص القرآنية، مما شجعه على الخوض بعلم البلاغة؛ وجمع هذه الأنواع، بما لا يحصى من الآراء، والمفاهيم. التي رزمها الزمخشري بهالة من الأسلوب العلمي الإقناعي.

الهــوامش:

[١] قراءة النص وجماليات التلقي، ص١٢١.

[٢] ينظر: الأسلوب، (ص١٨٥).

[٣] البلاغة والأسلوبية، د محمد عبد المطلب ص ٢٣٦

[٤] البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع، د مسعود بودوخة، ص ١٤.

[٥] ينظر: الصوة الأدبية في القرآن الكريم د صلاح الدين عبد التواب الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان ط١ ١٩٩٥م، ص ١٨٠.

[٦] الكشاف:(١/ ١٤).

[٧] البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص ٥٢.

[٨] معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ٣٣١٥.

[٩]ينظر: من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، د معتصم بابكر مصطفى، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، الأمة الدوحة- قطر، العدد: ٩٥، ص٣٣.

[١٠] في بلاغة الخطاب الإقناعي، (مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية)، د محمد العمري، افريقيا الشرق الاوسط (بيروت - لبنان)، ط٢، ص ٢٠.

[١١] المصدر نفسه، ص٣٥.

[١٢] أساليب الإقناع في القرآن الكريم، طاهر بن عيسى، ص ١٩.

[١٣] استراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري،ص٤٥٧

[١٤] المصدر نفسه، ص٤٤٨.

[١٥]المصدر نفسه، ص ٤٥٧.

[١٦] ينظر: الفنقلةُ عند الزمخشري بين الدلالة والحجاج، أ.م.د.عادل راضي جابر الزركاني، لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد التاسع عشر السنة السابعة، ٢٠١٥،ص١٤.

[١٧] [سورة الأعراف : ١٦٠]

[١٨] الكشاف ،(٢/ ١٦٨-١٦٩)

[١٩] [سورة الصافات: ١٠٤ - ١١١]

[٢٠] الكشاف، (٤/ ٥٧- ٥٨).

[٢١] المصدر نفسه، (٤/ ٥٨).

[٢٢] نفس المصدر والصفحة.

[٢٣] نفس المصدر والصفحة.

[٢٤] الكشاف، (٤/ ٥٨) .

[٢٥] ينظر: الفنقلةُ عند الزمخشري بين الدلالة والحجاج، د. عادل راضي جابر الزركاني، لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد التاسع عشر السنة السابعة، ٢٠١٥،ص١٤.

[٢٦] الكشاف (١/ ٢٥٥)و (٢/ ١١٣)و (٣/ ٢٩٦)الشواهد على التوالي .

[٢٧] الشرط وأثره الحجاجي في الخطاب ، مقاربة تداولية حجاجية في "مناضرة بين العلم والجهل للشيخ محمد الديسي الجزائري ، مجلة (لغة- كلام) جامعة غليزان ،المجلد ٧ العدد: ١ (٢٠٢١٩) - ص ٣١٢ .

[٢٨] ينظر: الكشاف ،(١/ ٤٧٤) .

[٢٩] الحيوان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٢، ١٤٢٤ هـ، (٦٧/٣).

[٣٠] ينظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم ، د عبد السلام أحمد الراغب ،، فصلت للدراسات والترجمة والمشر، ط١ ، ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م، ص٢٠.

[٣١] ينظر: المصدر نفسه، ص٢٤.

[٣٢] دلائل الإعجاز، (ص٢٣٣).

[٣٣] الكشاف (٣/ ٤٥٥)

[٣٤] ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص٤٠٣.

[٣٥] ينظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم ،ص٢٨.

[٣٦] الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، ص ١٧٩-١٨٠

[٣٧] [سورة الزمر: ٦٧]

[٣٨] الكشاف، (٤/ ١٤٢).

[٣٩] المصدر نفسه(٤/ ١٤٢-١٤٣).

[٤٠] الكشاف ،(٢/ ٣١٢)

[٤١] المصدر نفسه(٤/ ١٤٣).

[٤٢] وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم ص ٨.

[٤٣] [سورة الأنبياء : ٤٤].

[٤٤] الكشاف (٣/ ١١٩).

[٤٥] [سورة البقرة: ١٨٧].

[٤٦] الكشاف (١/ ٢٣١).

[٤٧] البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع، د مسعود بودوخة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، (٢٠١٨م-١٤٣٩هـ)، ص١٢.

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم

٢.أساليب الإقناع في القرآن الكريم، طاهر بن عيسى.

٣.استراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الوطنية ، ط١، ٢٠٠٤، ليبيا.

٤.الأسلوب، أحمد الشايب مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ٢٠٠٣.

٥.البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع، د مسعود بودوخة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، (٢٠١٨م-١٤٣٩هـ).

٦.البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري. وأثرها في الدراسات البلاغية، محمد محمد أبو موسى ـ دار التضامن، مكتبة وهبة، مصر- القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ-١٩٩٨م.

٧.البلاغة والأسلوبية، د محمد عبد المطلب الشركة المصرية العالمية للنشر ، القاهرة ،ط ٣ ، ٢٠٠٩.

٨.الحيوان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٢، ١٤٢٤ هـ، (٦٧/٣).

٩.دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت ٤٧١هـ)، تح: د عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م.

١٠.الشرط وأثره الحجاجي في الخطاب ، مقاربة تداولية حجاجية في "مناضرة بين العلم والجهل للشيخ محمد الديسي الجزائري ، مجلة (لغة كلام) جامعة غليزان ،المجلد ٧ العدد: ١ (٢٠٢١٩) -

١١.الصوة الأدبية في القرآن الكريم د صلاح الدين عبد التواب الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان ط١ ١٩٩٥م.

١٢.الفنقلةُ عند الزمخشري بين الدلالة والحجاج، .د. عادل راضي جابر الزركاني، لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد التاسع عشر السنة السابعة، ٢٠١٥.

١٣.في بلاغة الخطاب الإقناعي، (مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية)، د محمد العمري، افريقيا الشرق الاوسط (بيروت - لبنان)، ط٢.

١٤.قراءة النص وجماليات التلقي، بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا لنقدي، دراسة مقارنة، محمود عباس عبد الواحد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦.

١٥.مقاييس اللغة ، ابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا القزويني، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م..

١٦.من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، د معتصم بابكر مصطفى، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، الأمة الدوحة- قطر، العدد:٩٥.

١٧.وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم ، د عبد السلام أحمد الراغب ،، فصلت للدراسات والترجمة والمشر، ط١ ، ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.

مصادر اللغة العربية مترجمة للغة الإنكليزية:

1.Methods of persuasion in the Holy Quran, Taher bin Issa.

2.The Discourse Strategy: A Pragmatic Linguistic Approach, Abd al-Hadi bin Dhafer al-Shehri, National Book House, 1st Edition, 2004, Libya.

3.The method. Ahmed Al-Shayeb, Egyptian Renaissance Bookshop, 2nd Edition, 2003.

4.Arabic rhetoric between enjoyment and persuasion, Dr. Masoud Boudoukha, Dar Al-Kutub Al-Alami, Beirut, Lebanon, 1st Edition, (2018 AD-1439 AH.(

5.Quranic rhetoric in the interpretation of Zamakhshari. And its impact on rhetorical studies, Muhammad Muhammad Abu Musa - Dar Al-Tadamon, Wahba Library, Egypt - Cairo, 2nd edition, 1408 AH - 1998 AD.

6.Rhetoric and Stylistics, Dr. Mohamed Abdel-Mottalib, Egyptian International Publishing Company, Cairo, 3rd edition, 2009.

7.Animal, Amr bin Bahr bin Mahboub Al-Kinani Al-Laithi, Abu Othman, famous for Al-Jahiz (d. 255 AH), Dar Al-Kutub Al-Ilmiya - Beirut, 2nd edition, 1424 AH, (3/67.(

8.Evidence of Miracles in the Science of Meanings, Abu Bakr Abd al-Qaher bin Abd al-Rahman bin Muhammad al-Farsi, the original, al-Jurjani al-Dar (d.

9.The condition and its argumentative effect on discourse, a deliberative argumentative approach in “A Debate between Knowledge and Ignorance by Sheikh Muhammad Al-Disi Al-Jazaery”, Journal (Language-Kalam), University of Relizane, Volume 7, Issue: 1 (20219(

10.The Literary Voice in the Holy Qur’an, Dr. Salah El-Din Abdel-Tawab, Egyptian International Publishing Company - Longman, 1st edition, 1995 AD.

11.The Transition of Al-Zamakhshari, between the evidence and the pilgrims, .d. Adel Radi Jaber Al-Zarkani, Lark for Philosophy, Linguistics and Social Sciences, the nineteenth issue, the seventh year, 2015.

12.In the Rhetoric of Persuasive Discourse, (A Theoretical and Practical Introduction to the Study of Arabic Rhetoric), Dr. Muhammad Al-Omari, Africa Middle East (Beirut - Lebanon), 2nd Edition.

13.Reading the text and the aesthetics of reception, between modern Western doctrines and our critical heritage, a comparative study, Mahmoud Abbas Abdel Wahed, Dar Al-Fikr Al-Arabi, Cairo, 1st edition, 1417 AH, 1996.

14.Standards of Language, Abi Al-Hussein Ahmed bin Faris bin Zakariya Al-Qazwini, investigation by Abdul Salam Muhammad Haroun, Dar Al-Fikr for Printing and Publishing, 1399 AH, 1979 AD..

15.Methods of persuasion in the Holy Qur’an, Dr. Mutasim Babiker Mustafa, 1st edition, 1424 AH-2003 AD, Al-Ummah Doha-Qatar, Issue: 95.

16. The Function of the Artistic Image in the Holy Qur’an, Dr. Abd al-Salam Ahmed al-Ragheb, Fussilat for Studies, Translation and Publishing, 1st Edition, 1422 A.H.-2001 A.D.